﴿فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئۡتُم بِهِ ٱلسِّحۡرُۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبۡطِلُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨١﴾ [يونس: 81]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أثـر فـي النّـاس إلقاؤهم ما ألقَوْا

لَمّا طلبَ منهم مُوسى أنْ يُلقوا ما بأيديهم أوَّلًا، أجابَهُ السّحرةُ؛ ووقعَ منهم الإلقاءُ بحِبالِهِمْ وعِصيِّهِمْ جوابًا لمقالتِه، وسحروا أعينَ النّاسِ بما أفسدَ عقولَهُم وزلزلَها[1]، وما علموا أنّه تعالى مُبطِلٌ صنيعَ المفسدينَ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيُبۡطِلُهُۥٓ﴾: أصلُ (بطل): يدُلُّ على ذَهابِ الشَّيءِ وقِلَّةِ مُكْثِه وَلُبْثِه. وسُمِّيَ الشَّيطانُ: الباطِلَ؛ لأنَّهُ لا حَقيقَةَ لأفعالِه، وكُلُّ شَيءٍ منه فلا مَرْجُوعَ له، ولا مُعَوَّلَ عليه[2]. والإبْطالُ: التَّضْييعُ وَالإهْدارُ[3]. والبطل: الشجاع، قال أصحاب هذا القياس سُمّي بذلك لأنه يُعَرِّضُ نفسه لِلْمَتالف[4]. وهو صحيح، يقال: بطل بين البطولة والبطالة.

والإبْطالُ والبُطْلانُ: إفْسادُ الشَّيءِ وإتْلافُه، سَواءٌ كانَ حَقًّا أو باطِلًا[5]، تَقُولُ: بَطَلَ الدَّوَاءُ إذا فَسَدَ وَتَلِفَ وذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرَانًا. والمقصود بالإبطال في الآية: إظهارُ أنّ السِّحرَ تخييلٌ وليس بحقيقةٍ؛ لأنَّ إظهار ذلك إبطالٌ لما أُريد منه[6].

2) ﴿ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾: أصْلُ الفَسَاد: الخُرُوجُ عنِ الاعْتِدالِ[7]، يُقال:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بطل).
(4) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بطل).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: (بطل).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(7) الرّاغب، المفردات، والزّبيديّ، تاج العروس: (فسد).

فَسَدَ الكَلامُ، أيْ: خَرَجَ عن حَدِّهِ. وضِدُّه: الصَّلاحُ[1]، والفَسَادُ في الأرضِ هَيجُ الحروب والفِتَن؛ لأنَّ في ذلك فسادَ ما في الأرض، وانتفاءَ الاستقامة عن أحوال النَّاس والزَّرع والمنافع الدِّينيّة والدُّنيويَّة[2]. والمقصود بالمفسدين في الآية: السَّاعون في أرض الله بما يكرهه.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّوكُّل على الله تعالى من صفات المؤمن القويِّ

لَمَّا طرحوا ما عندهم مِنَ السِّحر قالَ لهُم مُوسى ﷺ: إنَّ الَّذي جِئتُم به وألقَيتُموه هو السِّحرُ عينُهُ، إنَّ الله سيُصيِّر ما صنعتم باطلًا لا أثر له، فإنَّه لا يُصلِحُ أعمالَ الَّذين يَسعَونَ في الأرض بما يَكرَهُه، فلا يُتِمُّها لهم فينتَفِعونَ بها، ولا يُثيبُهم عليها[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دلالةُ الفاءِ في ﴿فَلَمَّآ﴾:

المجاوبة بين الطَّرفين تقتضي التَّرتيب والتَّعقيب

الفاءُ في: ﴿فَلَمَّآ﴾ هي الفاءُ الدّالَّة على العطف والتّعقيبِ والتَّرتيب، نتيجةَ المجاوَبة والمقاوَلة بينَ الطَّرفيْن، لطلب مُوسى ﷺ أن يكونوا أوَّل المُلْقين[4].

بلاغةُ الوَصْلِ بالفاءِ:

الفعلُ موصولٌ عطفًا على محذوفٍ مُقدَّر

في قولِه تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ جملةٌ موصولةٌ بما سبقهَا بالفاءِ العاطفةِ؛ فوصلَ فعلَ الإلقاءِ بكلامٍ محذوفٍ مُتّصلٍ بما قبلَهُ تقديرهُ: (فألقى السّحرةُ سِحرهُم أوْ ما عندَهم)[5]، وهذا المحذوفُ المُقدّرُ جوابٌ لطلبِ مُوسى؛ فالجُمَل متعالِقةٌ فيما بينها، شديدةُ الاتّصالِ.

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (فسد).
(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المُؤصّل: (فسد).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 12/244، والواحديّ، التّفسير البسيط: 11/279.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3621.
(5) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/335.

دلالة أداة الشَّرط ﴿فَلَمَّآ﴾:

رتّـبَ الـجـوابَ تـرتُّـبَ المـعـلـولِ على العِلّةِ

﴿فَلَمَّآ﴾ في الجملةِ أداةُ شرطٍ غيرُ جازمةٍ، وهيَ حرفٌ عندَ ابن هشام، ومنْ أنواعِها الدّخولُ على الفعلِ الماضي[1]، وتُسمّى (لَمّا الحِينِيَّةَ)؛ لدلالتِها على الظّرفِ، وتفيدُ تعليقَ الجوابِ على الشّرطِ؛ فإنّهمْ لَمّا ألقوا ما عندهُمْ قالَ لهمْ مُوسى قولتهُ، وفعلُ القولِ جوابُ لَمّا[2]، فقدْ رتّبَ الجواب ترتُّبَ المعلولِ على العلّةِ.

نكتةُ صوغِ فعلِ الإلقاءِ ماضيًا، مجموعًا:

الإلـقـاءُ واقـعٌ حـتـمًـا، وفِـعـلُ الـجـمـعِ يـفـوق فِعلَ الأفرادِ

الفعلُ ﴿أَلْقَوْاْ﴾ دالٌّ على المُضِي، مُسنَدٌ لجمعِ السّحرةِ المُلْقِينَ، ودلالةُ صَوْغِهِ ماضيًا مجموعًا؛ أنَّ الإلقاءَ قدْ وقعَ منهُمْ بحِبالِهِمْ جوابًا لمقالتِهِ[3]، والفعلَ الماضي يدلُّ على التّحقُّقِ والوقوعِ، ثمَّ إنَّ كونهُ مجموعًا دالٌّ على حرصِهِمْ على إرهابِ النّاسِ وزلزلةِ عقولِهِمْ، وإخافةِ مُوسى، وإرضاءِ فرعونَ؛ فإنَّ عملَ الجَمعِ فائقٌ طبيعةَ عَمَلِ الأفرادِ.

حذفُ مفعولِ الإلقاءِ:

تـنـزيـلُ فـعـلِ الإلـقـاءِ منْزلةَ الـلّازمِ؛ لتأكيد الإلقاء والاعتبار بـانـتـصـار المُستَضعَفين

لفظةُ ﴿أَلْقَوْاْ﴾ فعلٌ وفاعلٌ حُذفَ مفعولُه، وسِرُّ حَذْفِ مفعولِه أنّهُ أرادَ تنزيلَ الفعلِ المتعدّي منْزلةَ الفعلِ اللّازمِ؛ فالغرضُ بيانُ الإلقاءِ فعلًا وفاعلًا، ولا يتعلّقُ الغرضُ بذِكْرِ المفعولِ وبيانِه، بلْ كانَ الغرضُ الاعتبار ممّا حصلَ منْ نُصرةِ اللّه المستضعفينَ الّذينَ آمنوا بمُوسى، وكيفَ ختمَ لهم الحقُّ سبحانهُ بحسنِ العاقبةِ[4].

وجهُ الإبهامِ في التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾:

ما استُفْهِمَ عنهُ ليسَ جهلًا؛ بل احتقارًا وإنكارًا

وجهُ التّعبيرِ بـ ﴿مَا﴾ الدّالّة على الإبهامِ في قولِه: ﴿مَا جِئْتُم﴾،

(1) ابن هشام، مُغني اللبيب، ص: 369.
(2) الهرري، حدائق الرّوح والرّيحان: 12/335.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.

هوَ على تقديرِ: أيُّ شيءٍ جئتُم بهِ ليسَ جهلًا؛ بل تحقيرًا وتصغيرًا لهم، وإنكارًا لما جاؤوا بهِ[1].

أبهمَهُ لقصدِ الاهتمامِ بذِكْرِهِ والتّشويقِ إلى معرفةِ الخبرِ

ودلالة ﴿مَا﴾ على الإبهامِ في قولِه: ﴿مَا جِئْتُم﴾، الغرضُ منه: الاهتمام بذِكْره، ثمّ جَعَل المخاطَب مُتشوِّقًا إلى معرفة الخبر[2].

بلاغةُ المجازِ في لفظِ المجيء:

الّذي يجيءُ بالشّيءِ يُظهرُهُ في المكانِ الّذي حلَّ فيه

معنى قولِه: ﴿جِئْتُم بِهِ﴾ أي: أظهرتموهُ لنا، وليسَ المُرادُ أنّهم أتَوا من أمكنةٍ أُخرى ومعهُم السّحرُ؛ لأنّهُ وإن كانَ حاصلًا معَ بعضٍ منهُم، إلّا أنّهُ لا يَطّردُ في كلّ تعبيرٍ مُشابهٍ، فالتّعبيرُ بالمجيءِ ليسَ على وجهِ الحقيقةِ إذنْ؛ بل هوَ مجازٌ؛ فإنّ الّذي يجيءُ بشيءٍ يُظهرهُ في ذلكَ الموضعِ الّذي حلّ فيهِ[3].

دلالةُ الباءِ وَعَودُ ضميرِهِ في ﴿بِهِ﴾:

استعانوا بالسّحرِ طاعةً لفرعونَ ونُصْرةً لمذهبِهم الباطلِ

الباءُ في ﴿بِهِ﴾ دالَّةٌ على الاستعانةِ بالسّحرِ؛ فإنّهمْ أظهروا سحرَهُمْ أمامَ مُوسى ﷺ استعانةً منهمْ بهِ في بيانِ مذهبِهمُ الباطلِ، ونصرةً لضلالِهمْ، وطاعةً لفرعونَ، والضّميرُ يعودُ على ﴿مَا﴾ بمعنى الّذي[4] المفسَّرِ بالسّحرِ.

سِرّ تقديمِ جملةِ المُسنَدِ ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾:

حَصْرُ السِّحْرِ بهم، وقَصْرُه عليهم

سِرُّ تقديمِ جملةِ: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ على ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ أنّهُ أرادَ معنى الحصرِ على القراءةِ المشهورةِ، أي: الّذي جئتُم بهِ هوَ السّحرُ، ولا سِحْرَ غيرهُ ممّا سمّاهُ فرعونُ وقومُه سِحْرًا[5]، ولَمّا أُريدَ الحصرُ فإنّ المحصورَ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ يكونُ مُتأخِّرًا، وغيرُ المحصورِ ﴿مَا جِئْتُم﴾ يَتقدّمُ عليهِ.

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/368، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 3/135.
(5) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/543.

تعريفُ السّحرِ بيَن الجنسِ والعهديّة:

ما جئتُم بهِ هوَ السّحرُ لا الّذي ادّعـاه فـرعـونُ بتَذليسه

أوردَ لفظةَ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ مُعرَّفةً، والتّعريفُ هنا للجنسِ، أي: عامٌّ في كلِّ ما يدخلُ تحتَ هذا الجنسِ، وهذا النّوعُ مِنَ التّعريفِ يُفيدُ القصرَ الإفراديَّ فضًّا لشراكتهِ مع سِحرٍ آخَرَ، والمعنى أنَّ الّذي أتيتُمْ بهِ هوَ السّحرُ، لا الّذي ادّعاهُ فرعونُ مِن آياتهِ تعالى؛ فإنّهُ ليس سحرًا[1].

بالَغَ في وَصْف سِـحْـرهـم لشَناعتهِ وشِدّةِ ضَرَرِهِ

ويجوزُ في تعريفِ لفظةِ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ تعريفًا جنسيًّا أن تكونَ إفادتُها لقصرِ الجنسِ على المُسنَدِ إليهِ قصرًا حقيقيًّا، فلا سحرَ غيرُه، أو يكون قصرًا للمبالغةِ[2]؛ فإنّهُ لشناعتهِ وتمويههِ وتلبيسهِ على النّاسِ، فكأنّه لا سحرَ أضرّ على النّاسِ منهُ.

تعريفُ السّحرِ هنا للعَهدِ؛ لأنّهُ قد تقدّمَ مُنَكَّرًا

ويجوزُ في تعريفِ لفظةِ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ أن يكون للعهدِ؛ لأنّهُ جوابُ لكلامٍ سابقٍ هو قولُه: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧٦﴾ [يونس: 76] بالتّنكيرِ، وكلُّ لفظٍ يَرِدُ مُنكَّرًا أوّلًا يُعادُ مُعرَّفًا إذا كُرِّرَ، كقولكَ: وجدتُّ درهمًا، فتقولُ لهُ: أرني الدِّرهمَ، ولو نكّرتَهُ لكنتَ سائلًا عن درهمٍ غيرِه[3].

توجيهُ القراءةِ في (السِّحر):

قراءةُ الاستفهامِ دالّـــةٌ عـلى التّوبيخِ

لفظةُ ﴿ٱلسِّحۡرُۖ﴾ في الجملةِ خبرُ ﴿مَا جِئۡتُم بِهِۦ﴾، وهي قراءةٌ عامّةِ القرّاءِ، فيما قرأ أبو عمرو وأبو جعفرٍ ﴿ءَآلسِّحۡرُۖ﴾ بالاستفهامِ[4]، على تقديرِ: أيّ شيءٍ أتيتُم بهِ؟ هل هو السّحرُ؟[5] وهو هنا على معنى التّوبيخِ والتّقريعِ[6]؛ أي: ماذا حملكُم على أن أتيتُم بهذا المُنكرِ المُسمَّى سحرًا؟.

لـمْ يكـنْ مُـوسى يَـشُـكُّ في أنَّ ما رأى هـو السّـحرُ بعينهِ

وقراءةُ الخبرِ أقوى، فإنَّ مُوسى لمْ يكنْ يشكُّ في أنّهُ سحرٌ لا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 6/156، والقونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/538.
(2) زاده، حاشية زاده على تفسير البيضاويّ: 4/597.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/475، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/135.
(4) ابن الجزريّ، النّشر: 1/378.
(5) الفرّاء، معاني القرآن: 1/475.
(6) النّحّاس، معاني القرآن: 3/308.

حقيقةٌ، وليستْ بهِ حاجةٌ للاستخبارِ عنْ حقيقةِ ما رأى، في كونهِ سِحْرًا أمْ غيرَ ذلك[1].

﴿مَا﴾ بيْن الاستفهاميّةِ والموصوليّة:

في الموصولة أُريدَ العمومُ، وفي الاستفهاميّة أُريدَ التّوبيخُ والتّحقيرُ

﴿مَا﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ مُتردِّدةٌ بينَ الموصوليَّةِ والاستفهاميَّة، فعلى قراءةِ الجمهورِ في لفظةِ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بهمزةِ الوصلِ تكونُ ﴿مَا﴾ موصولةً و﴿ٱلسِّحْرُ﴾ عطفَ بيانٍ، والمعنى: الَّذي جئتُم به السِّحْرُ، مع ما تحمله ﴿مَا﴾ من دلالة العموم. وعلى قراءةِ أبي عمرٍو وأبي جعفرٍ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بهمزةِ الاستفهامِ تكونُ ﴿مَا﴾ استفهاميَّةً، وتكونُ كلمةُ ﴿ٱلسِّحْرُ﴾ بيانًا لـ﴿مَا﴾ المُستَفهَم بها، والغرضُ: إظهارُ كمالِ شناعةِ فعلِهم، فيُرادُ منهُ التَّوبيخُ والتَّحقيرُ[2]، والمعنى: أنّهُ أمرٌ يستطيعهُ ويعرفُ حالَهُ كلُّ أحدٍ، ولا يتصدَّى له ذو عقلٍ وحِجًا[3].

نُكْتَةُ التّوكيدِ بـ ﴿إِنَّ﴾، واسميَّةِ الجملةِ:

في التّوكيدِ زيادةٌ في إلقاءِ الرّوْعِ في نفوسِهم

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ جملةٌ اسميَّةٌ تقعُ خبرًا لـ﴿مَا﴾ الموصولةِ على قراءةِ الجمهورِ، أي: إنّ الّذي جئتُم بهِ هوَ السّحرُ، وإنَّ اللّه سيبطلُهُ بمَا أتيتُ بهِ منَ الحقِّ واليقين[4]، وقدْ أكّدها بـ ﴿إِنَّ﴾ زيادةً في تخويفِهم، وإلقاءِ الهَلَعِ في نفوسِهم[5].

توجيهُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

زيادة المهابةِ في نفوسِ المعانِدينَ

في إظهارِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾ زيادةٌ للمهابةِ وإدخالِ الخوفِ في نفوسِ المُعانِدينَ مِنْ قومِ فرعونَ وسَحَرَتِه، بما لهُ تعالى منْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ من العلمِ والقدرةِ والإحاطةِ[6].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 15/160.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/368.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/170.
(4) رضا، تفسير المنار: 11/382.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/174.

دلالةُ السّينِ في ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾:

سينُ الاستقبالِ مؤكّدةٌ للسِّحر ومؤذِنةٌ بقُربِ إبطاله

والسّينُ في قولِه: ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ دالّةٌ على كَوْنِ السِّحْر حقيقةً واقعةً، إذْ لوْ كانَ باطلًا في أصلِه لاستحالَ إبطالُه على الاستقبالِ[1]، كما تدلُّ سينُ الاستقبالِ هنا على القريب الأمد، وليس المتطاول بـ (سوف) أو بالمضارع المُجرّد. وفي ذلكَ إشارةٌ إلى دُنُوّ محوِه وإبطالِه، وحصولِ ذلكَ العلم لمُوسى ﷺ إمّا وحيًا، أو بفعلِ سُنَّتِه الكونيَّةِ؛ بأنّه تعالى لا يُصلحُ عملَ المفسدينَ[2].

ويجوزُ في سينِ الاستقبالِ هذهِ أن تكونَ دالّةً على التَّأكيدِ، أي: إنّ الحقّ سبحانَهُ سيمحقُ السّحرَ ويُهلكهُ ولا يُبقي لهُ أثرًا، ويُصيِّرهُ باطلًا بما يُظهرُهُ على يَدَيْ مُوسى ﷺ مِنَ الآياتِ البيِّنة المُعجزة[3].

إيثارُ لفظِ الإبطالِ:

إظهارُ السِّحْر على أنّهُ تخييلٌ إبطالٌ لتأثيره

آثرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الإبطالِ في قولِه: ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ لأنَّ الإبطالَ معناهُ: الإظهارُ، أي: إظهارُ أنّهُ ليسَ حقيقةً، بلْ هوَ تخييلٌ وتصويرٌ؛ لأنَّ إظهارهَ على هذهِ الهيئةِ إبطالٌ لما أُريدَ منهُ، فهوَ قائمٌ على فضحِ سِرّهِ، ومنْ ثَمَّ سيَبطلُ تأثيرهُ على النّاسِ[4].

عودُ الهاءِ في ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾:

أُضمِرَ العائِدُ تحليةً للّفظِ وإيجازًا للعبارةِ

الهاءُ في قولِه: ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ مفعولٌ للفعلِ يبطلُ وهوَ عائدٌ على السّحرِ[5]، وهوَ من بابِ إيقاعِ المُضْمَرِ بعدَ ذكرِ الظّاهرِ؛ تحليةً للّفظِ، وإيجازًا للعبارةِ.

بلاغة الإطناب:

تقرير الخطاب تمكينٌ للخبر في الأذهان، وإيقاعٌ للرُّعب في النُّفوس

في قولِه: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾

(1) السّخاويّ، تفسير القرآن العظيم: 1/372، و(السّين) و(سوف) حرفان يخلّصان الفعل المضارع للاستقبال، و(السّين) أقرب وقوعًا من: (سوف)، يُنظر: السّيرافيّ، شرح كتاب سيبويه: 1/31.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(3) القنوجيّ، فتح البيان في مقاصد القرآن: 6/107.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.

نظمَ الكلامَ على طريقةِ بسطِ عنانِ الخطابِ، المُسمَّى عندَ البلاغيِّينَ بالإطنابِ[1]؛ فقدْ جعلَ فعلَ المجيءِ مُسنَدًا إليهِ، منْ غيرِ أنْ يكونَ مفعولًا لفعلِ الإبطالِ، وأنّهَ جاءَ مُبهمًا، ثمَّ فسّرهُ بجُملة: ﴿جِئْتُم﴾، ثمَّ بيّنهُ بعطفِ البيانِ؛ قصْدًا إلى الاهتمامِ والتّشويقِ، ثمَّ مجيءِ المفعولِ ضميرًا للفعلِ ﴿سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾، فكلّ ذلكَ على خِلافِ مُقتَضى الظّاهرِ؛ لتتقرّرَ حقيقةُ السّحرِ، وتتمكّنَ في أذهانِ السّامعينَ والمُخاطَبينَ خيرَ تمكُّنٍ، ويقعَ الرُّعْبُ والهَلَعُ في نفوسهمْ[2].

دلالة تقديم ﴿إِنَّ ٱللَّـهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾:

جُملةُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ مُقدَّمةٌ على جُملةِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾، والمرادُ منْ هذا التّقديمِ: أنّهُ لا يتحقّقُ نفيُ الإصلاحِ إلّا بتسليطِ أسبابِ بُطلانهِ عليهِ؛ حتّى يكونَ تأثيرهُ باطلًا، وأنّ فسادَ أعمالِ أمثالهمْ هوَ إبطالُ أغراضِهمْ منها، وفسادُها وإظهارُ بُطلانِها[3].

لا يتحقّقُ نفيُ الإصـــلاحِ إلّا بتسليطِ أسبابِ بُطلانهِ عليهِ، حتّى يكونَ تأثيرُهُ باطلًا

تكرارُ إظهارِ اسمِهِ الأعظم:

في قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أعادَ إظهارَ الاسمِ الجليلِ، وعلّةُ هذا التّكرارِ هي إظهارُ الكمالِ كلّهِ له وَحْدَهُ تعالى في ملكوتهِ[4]، وفي تكرارِه - أيضًا - إلقاءٌ للرَّوعةِ، وتربيةُ المهابةِ[5].

الكمالُ كلّهُ للهِ وحدَه ﷻ

فلمْ يقلْ: (إنّ اللّه لا يُصلحُ عملَكُم)؛ فهم المخاطَبونَ بذلكَ؛ وسرُّ ذلكَ تأكيد الإفسادِ عليهم، إذِ السِّحْر مِنَ المفاسد الكبرى الموبِقَة، والإشعارُ بعِلّةِ الحُكمِ، أي: مُسوِّغِ الإبطال.

سـجَّـلَ عليهم بـــالإفـــسـادِ والإشعـارِ بعلّةِ الحكمِ

(1) ومعناه الاصطلاحيّ: "زيادة اللّفظ على المعنى لفائدة جديدة من غير تكرير، وهو وادٍ من أودية البلاغة، ولا يَرِد إلا في الكلام المُؤتلِف، ولا يُختصُّ بالمفردات، فمعناه لا يحصل إلّا في الأمور المُركَّبة". يُنظر: يحيى العلويّ، الطِّراز: 2/123.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/255.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/257.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 9/175.

(5) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/171.

دلالةُ النّفي بـ ﴿لَا﴾:

إذا نفى اللّهُ إصلاحهَا فذلكَ بتَزْكِهَا وشأنَها

في قولِه تعالى: ﴿لَا يُصْلِحُ﴾: ﴿لَا﴾ هنا نافيةٌ، فقدْ نفتِ الإصلاحَ، ونفْيُ الإصلاحِ يكونُ بالتّركِ والإهمالِ[1]، مثلَما يكونُ الإصلاحُ بالمَنْحِ والإعطاءِ، وقد يكون نفيُ الإصلاحِ بعدم إتمام العمل، وبأنْ يمحق تعالى بَرَكَتَه، ويُسلِّطَ عليه الدَّمارَ والبَوَارَ.

نُكْتَةُ التّعبير عن نفي الإصلاحِ بالمضارعِ:

ما لم يُصلحْهُ اللهُ لا يدومُ ولا يَثبتُ

وجاءَ فعلُ الإصلاحِ المنفيُّ مضارعًا على معنى أنّهُ تعالى يتركهُمْ وإفسادَهُمْ، فإذا كانَ الإصلاحُ مضارعًا، بمعنى: التّجدُّدِ والدَّوامِ؛ فإنَّ نفيَ الإصلاحِ مُتعيِّنٌ فيهِ عدمُ الدَّوامِ وعدمُ الثَّباتِ، فيكونُ باطلًا زائلًا[2]، أي: إنّ نفيَه تعالى لإصلاح عمل المفسدين دائمٌ ومستمرٌّ، فلا بركةَ في أعمالهم، ولا توفيقَ في مآلاتها.

بلاغةُ تضمينِ ﴿يُصْلِحُ﴾ معنى (يرضى):

لا يَـرضى اللـه عملَ المفسدينَ ولا يُـؤيِّـدهُ، بل يُبطلهُ

والمُرادُ منْ نفيِ إصلاحِ عملِ المفسدينَ في الآيةِ، أيْ: إنَّه تعالى لا يُؤيِّدهُ، لا نفيَ جَعْلِهِ صالحًا، فأصلُ الإفسادِ لا يَصيرُ صلاحًا حتّى ينفيَ تصييرَها عن اللّه تعالى[3]، وقوله: ﴿لَا يُصْلِحُ﴾ مضمّنٌ معنى (لا يرضى)[4]، أي: لا يرضى عملَ المفسدينَ ولا يُؤيِّدهُ؛ بل يُبطلهُ.

وجهُ الطِّباقِ بيَن ﴿يُصْلِحُ﴾، و﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

عدمُ الإصلاحِ لا يقتضي الإفسادَ، لكنْ حُملَ عليهِ بالمُقابَلةِ

وبينَ عـدمِ الإصـلاحِ في ﴿لَا يُصْلِحُ﴾، والإفسـاد في ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ طِباقٌ، فبَيْنَ الإصلاحِ والإفسادِ وشيجةٌ قائمةٌ على الضِّدِّيَّةِ في المعنى، وإنِ اختلفَ الأسلوبُ بينَ الفعليَّةِ والاسميَّةِ، "وعدمُ الإصلاحِ وإنْ لمْ يستلزمِ الإفسادَ، لكنْ بمعونةِ المقابلةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/544.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(4) الزّركشيّ، البرهان: 3/342.

حُملَ عليهِ"[1]، فوُرُودُهُما في سياقٍ واحدٍ ممّا يخلعُ على العبارةِ نصاعةً بيانيَّةً.

وجهُ التّعليلِ في جملةِ الفاصلةِ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ جملةٌ تعليليَّةٌ لما سبقَها، تندرجُ تحتَ قاعدةٍ عامَّةٍ وسُنَّةٍ منْ سُننهِ تعالى، في نزاعِ الحقِّ والباطلِ والصّلاحِ والفسادِ، والسِّحرُ مندرجٌ تحتَ بابِ الباطلِ والفسادِ، فالحقّ تعالى لا يجعلُ عملَ السَّحرةِ المفسدينَ صالحًا[2]؛ لكونه يُسبِّب الفسادَ والخرابَ في الأرض، فضلًا عن كونه يتعارض مع تعاليمه سبحانه وسُنَنِه وقوانينه في الأرض؛ الَّتي بلَّغها عن طريق الرُّسل.

تنازعُ الحقِّ والباطلِ والصَّلاحِ والفسادِ، والسّحرُ باطلٌ وفسادٌ لا يُصلحه الله

علَّةُ تعريفِ (العملِ) بالإضافةِ:

قولُه: ﴿عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ مركّبٌ إضافيٌّ مؤذِنٌ بفسادِ العملِ؛ "لأنَّهُ فِعْلُ مَن شأنهُمُ الإفسادُ؛ فيكونُ نسْجًا على منوالهِمْ، وسِيرَةً على معتادهِمْ"[3] فالإفسادُ مُكتَسَبٌ ممّا يتعاطونهُ. فمغزى الإضافة التَّخصيصُ والتَّعيين، وفي ذلك انحرافٌ عن عموم العمل؛ بل هو العمل الَّذي يقوم به المفسدون.

الإفسادُ مُكتسَبٌ يتعاطونهُ نسجًا على منوالهِمْ، وسَيْرًا على مُعتادهِمْ

سِرُّ إطلاقِ لفظِ العملِ على سِحرِهِم:

في إطلاقِ لفظِ (العملِ) على السّحرِ الّذي أتَوا بهِ إشارةٌ إلى هذا الجنسِ مِنَ العملِ؛ لأنّهُ يشملُ كلَّ منْ يَصدقُ عليهِ معنى الإفسادِ، والسِّحرُ داخلٌ فيهِ معَ مَن يقومُ بهِ منْ بابٍ أوْلَى[4]، ويُشير اصطفاءُ لفظِ (العمل) أيضًا إلى أنَّ السِّحر ليس مجرّدَ فعلٍ عابرٍ؛ بل هو نشاطٌ مستمرٌّ يتطلّب جهدًا، وكَدًّا، وتخطيطًا.

السِّحر وإن كان إفسادًا إلَّا أنَّه عملٌ يتطلّب جُهدًا مِن صاحبه

(1) القونويّ وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاويّ: 9/539.
(2) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/382.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/256.
(4) الشّوكانيّ، فتح القدير: 2/529.

نُكْتَةُ إيثارِ لفظِ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التّعبيرَ بـ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأنّ القصدَ من أعمالِهم السَّيِّئةِ إضلالُ النّاسِ، وزلزلةُ عقولِهم؛ لغرضِ تسخيرِهم وتعميةِ أسبابِ الأشياءِ عليهم؛ فيكونوا كالأداةِ الطَّيِّعةِ بأيديهم وتحتَ إمْرَةِ سِحْرِهم؛ فلا يَجدُ الهُدى إلى أنفسِهم سبيلًا[1].

قصدُهُم تضليلُ عقولِ النّاسِ غرضًا لتسخيرِهم

أُطْلِقَ على السَّحرةِ وَصْفُ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؛ لأنّ عملَهُمُ السِّحرَ سببٌ عظيمٌ من أسبابِ الفسادِ في الأرضِ، وقد نعى عليهمُ القرآنُ بأنّهم يُفرّقون به بينَ المرءِ وزوجِه؛ فَعَمَلُهم هذا الّذي اتَّخذوهُ مِهنةً يُعدُّ فسادًا وتخريبًا وشرًّا في الأرضِ، كما يفعلُ المُفسِدونَ[2].

السِّحرُ من أسبابِ الفسادِ في الأرضِ

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

الألفُ واللّامُ في ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ تُفيدُ الجنسَ لأجلِ التّعميمِ؛ إعلامًا للمُخاطَبِ بأنَّ ما يقومونَ بهِ من عملِ السّحرِ إنّما هو من جنسِ عملِ المفسدين[3] الّذي لا يرتضيه اللّه تعالى.

سحرهُمْ هوَ منْ عملِ المُفسِدينَ

دلالةُ الجمعِ السّالمِ لـ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾:

في جَمْعِه ﴿ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ جمعَ مذكّرٍ سالمًا؛ دلالةٌ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، أي: إنّ الفسادَ ثابتٌ عندَهم، لما يُعطيهِ الاسمُ من هذهِ الخاصَّةِ[4]. ثمّ إنّ الجمع يدلُّ على أنّ الفساد والخَراب لا يقعان نتيجةً لأفعالِ فردٍ واحدٍ فحسبُ؛ بل تَقْوى وتتمكَّن بتعاضُدِ مجموعةٍ منَ الأفرادِ عليها.

الفسادُ عندَهم ثابتٌ دائمٌ، وهو فعلُ جماعتِهم

بلاغةُ حذفِ إلقاءِ مُوسى عصاهُ والْتِقامِ ما ألْقَوهُ:

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾؛ على تقديرِ: فلمّا ابتلعتْ عصا مُوسى ما جاؤوا بهِ من حبالهم وعصيّهم جميعًا حالَ كونِها حيّةً؛

فَصَّلتِ السُّورُ الأُخرى إبطالَ السِّحرِ، وأُوجِزَ هنا لهوانِه وحقارتِهِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/257.
(2) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 11/124.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/256.
(4) الهلال، تفسير القرآن النّريّ: 11/124.

أدركوا أنّهُ تعالى أبطلَ تلكَ الأعيانَ وأفناها، وأخبرَ تعالى هذا التّفصيلَ مِن إبطاله السّحرَ في سورٍ أخرى[1]، والغرض من الإيجاز في إيراد الحادثة هنا هو الدّلالة على حَقارة السّحر وهَوانه عند الله، والتّأكيد على إبطال عمل المفسدين.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 17/288.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 20 ، 812 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-17-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 20 : المجلد العشرون، سورة يونس من الآية 76 إلى سورة هود الآية 40.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-17-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6073958 بتاريخ 2024/02/06م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»